من تراثنا الشعريّ المقاوم للصليبيين
(أسامة وابن رزّيك نموذجاً)

□ أ. د. فاروق اسليم*

١ـ تقديم:

هذه القراءة في تراثنا الأدبي المقاوم مؤسسة على أنّ العلاقة بين العروبة والإسلام إشكالية قديمة، متجدّدة؛ وهي الزمن العربي المعاصر من العناوين البارزة للتوجهات التي تقوّي أواصر وحدة الأمّة، وتحافظ على هوّيتها، وتعزّز مقاومتها للعدوان الأجنبي عليها، وهو العدوان الذي يستهدف أمتنا أرضاً وشعباً وثقافة، في الشام والعراق والجزيرة العربية ووادي النيل وشمال إفريقيا والصومال، وفي كلّ مكان تتواءم فيه العروبة لتشكيل التكوين المقاوم والممانع للعدوان على الأمّة.

وللأدب المقاوم في تراثنا العربي جذور تاريخية تمتد إلى العصر الجاهلي؛ إذ نشهد في أخباره وأشعاره ما يدلّ على أنّ مقاومة العدوان الأجنبي كانت من مظاهر الوعي المبكر بالوجود القومي للعرب، وأنّ المقاومة للأجنبي كانت من مظاهر تجاوز وحدة القبيلة نحو وحدة الأمة[1].

وفي العصور التالية لظهور الإسلام أضحى لتكوين الأمة العربية سمات جديدة، لها طابع تجاوز دائرة النسب العنصري إلى دائرة تكوين حضاري، امتزجت فيه ثقافات وعناصر مختلفة في دائرة العروبة والإسلام، نراها بارزة في تعبير الأدب المقاوم عن وعي وسلوك يوحدان أبناء الأمة في تلك الدائرة، ومثال ذلك شعر أبي فراس الحمداني (ت٣٥٧هـ)؛ إذ فيه ما يدلّ على أهمية التحديات التي تواجهها الأمة في إنتاج

---

* أستاذ في قسم اللغة العربية في جامعة حلب، عضو اتحاد الكتّاب العرب - جمعية البحوث والدراسات.

(١) ينظر الفصل الخامس من (الانتماء في الشعر الجاهلي، ١٩٩٨، فاروق اسليم، اتحاد الكتاب العرب، دمشق).

وعيها، وتجدّده؛ فالصراعات الداخلية تعوق توحّدها، وتنتج توجهات تعود على الأمة بالضعف والتشرذم والتعصّب القبلي والعنصري. أمّا مقاومة اعتداء الآخر فكانت عامل توحيد، أنتج وعياً صائباً للتكوين التاريخي للأمة، يجمعها في دائرة العروبة والإسلام[١]، وهو ما سنجده على نحو مشابه في قراءتنا لشعر علمين من أبطال الحروب الصليبية وشعرائها، هما أسامة بن منقذ وطلائع بن رُزّيك.

٢ـ من ترجمة أسامة وابن رُزّيْك:

من المعروف أن الحروب الصليبية صنعت تحدّياً جديداً لم تعرفه المنطقة العربية في مصر والشام بخاصّة، من قبلُ، لكونه يستهدف الهوية والأرض والثقافة، وهذا ما جعل دائرة التحدي للعدوان ومقاومته تتسع لتشمل العناصر المختلفة التي تكوّن النسيج الحضاري لأمتنا آنذاك. وقد كثرت في أثناء ذلك مظاهر الأدب المقاوم للفرنجة، الذي تبيّن فيه أنّ مقاومة العدوان على الأمة تصنع وعياً بالانتماء والولاء لوجود إنساني متنوّع، تتوحّد فيه عناصر الأمة لمواجهة الخطر الأجنبي.

وكان لضعف سلطة الخلافة المركزية عن القيام بأعباء القيادة للتحدي والمقاومة أثرٌ كبير في ظهور مراكز قوى كثيرة في الدولة، ولاسيّما في بلاد الشام ومصر، حيث كان المجال الرئيس لمقاومة العدوان الصليبي وممانعته. ولعلّ من اللافت أن ذلك قد صنع تصالحاً مهمّاً بين العنصر العربي نسباً وغيره، على نحو لم يكن قبلُ. وهو ما سنلحظه في قراءتنا لنماذج من شعر الأمير أسامة بن منقذ وطلائع بن رزّيْك.

٢ -١ أمّا أسامة فهو أسامة بن مرشد بن عليّ بن مقلّد بن نصر بن منقذ، ولد بشيزر قرب مدينة حماه السورية، سنة ٤٨٨هـ، وكانت شيزر إمارة عربية تتولّى أسرة أسامة شؤونها، فنشأ في بيئة علم وفروسية، ومقاومة للغزو الصليبي، وكان تخوّف حاكم شيزر من ابن أخيه أسامة سبباً في ترك أسامة لشيزر، فمضى إلى الموصل أوّلا، واتصّل ببطل الحروب الصليبية عماد الدين زنكي، ثم عاد أسامة إلى شيزر للدفاع عنها ضدّ الصليبيين سنة ٥٣٣هـ، ثم غادر إلى دمشق، ثم إلى القاهرة سنة ٥٣٩هـ، ونال منزلة عالية لدى الخليفة الفاطمي، غير أنّ مؤامرات القصر العاصفة دفعت به إلى مغادرة القاهرة، على الرغم من علاقته الوطيدة بالوزير الفاطمي الجديد طلائع بن رزّيْك، فعاد أسامة إلى دمشق سنة ٥٤٩هـ، حيث اتصل بحاكمها المجاهد، والملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي (ت ٥٦٩هـ) فكثرت في أثناء ذلك رسائل طلائع الشعرية إلى أسامة، يحثّه فيها على اجتماع كلمة مصر والشام لمحاربة الصليبيين. ثمّ اتصل أسامة بصلاح

[١] ينظر الوعي القومي في شعر أبي فراس الحمداني، في (مجلة الموقف الأدبي، ع ٣٦٦، اتحاد الكتاب العرب، دمشق).

الدين الأيوبي (ت٥٨٩هـ)، وكانت الصلة بينهما وثيقة جداً، وظلّ أسامة بدمشق إلى أن وافته المنيّة فيها سنة ٥٨٤هـ، ودفن في سفح جبل قاسيون[١].

٢ -٢ وأمّا الملك الصالح طلائع بن رُزَّيْك فهو أرمنيّ النسب والنشأة. ولد في أرمينية سنة ٤٩٥هـ لأسرة جمع الله لها الدنيا والدين، فنشأ، وفي جنبيه رغبة ملحّة في العلم والأدب، ثمّ غادر موطنه إلى العراق، فزار مرقد الإمام عليّ بن أبي طالب في النجف، ثمّ رحل إلى مصر، ونال تقديراً عظيماً فيها؛ فقد وُلّي منية بني خصيب من أعمال صعيد مصر، ثمّ استدعي من قصر الخلافة في القاهرة، ليتولّى الوزارة سنة ٥٤٩ هـ، ولقّب بالملك الصالح، وأمسك بمقاليد مصر الفاطمية، وكان صديقاً لأسامة بن منقذ، وقد كثرت بينهما المراسلات الشعرية، وهي مراسلات غلب عليها الاهتمام بالصراع مع الصليبيين والدعوة إلى وحدة قوى الشام ومصر لمواجهتهم. وقدّ ظلّ الأمر على هذا المنوال بينهما إلى أنْ قتلِ طلائع غيلة سنة ٥٥٦هـ[٢].

٢ -٣ وقد أبرز التراسل الشعري بين أسامة وابن رُزّيْك جانباً إخوانياً يعبّر عن صداقة وثيقة العرى بينهما، إضافة إلى تعبيره عن قيم اجتماعية متطوّرة؛ فقد كان التجاذب بين الانتماء والولاء عنصرياً وحضارياً في المجتمع العربي الإسلامي شديداً، في القرنين الثالث والرابع الهجريين، وقد عبّر عدد من رموز الثقافة العربية عن ضيقهم بتقلّد غير العرب لمقاليد السلطة، وإلى ذلك أشار طلائع بن رُزّيك، في قوله لأسامة بن منقذ[٣]:

والعُـــرْبُ أقـــتَلُ داءٍ يَهلِكُـــون بـــه أن تَملِـــكَ الحُكْـــمَ في أعـــناقِهَا عَجَـــمُ

غير أنّ تحديد العدو الرئيس للأمة آنذاك، وهو مقاومة عدوان الفرنجة، قد أسهم في صنع ثقافة جديدة، من معالمها تنوّع الأصوات المقاومة داخل الأمة، وقبول كلّ منها للآخر. ومن أبرز ما يدلّ على ذلك أنّ الأسرة الأيوبية، وأصولها غير عربية، قد قادت الأمة زمناً، وتجاوز سلطانها مصر والشام إلى اليمن لكونها قادت النضال لتحرير الأرض من الصليبيين، وقد حارب تحت راياتها أبناء الأمة على اختلاف منابتهم.

---

[١] ينظر لترجمة أسامة، ومسيرة حياته مقدّمة ديوانه: ديوان أسامة بن منقذ، ١٩٥٣، تحقيق أحمد أحمد بدوي، وحامد عبد المجيد، المطبعة الأميرية، القاهرة، ص ١ - ٩. وقد ترك أسامة - إضافة إلى ديوانه - عدّة كتب، منها كتاب الاعتبار، والمنازل والديار، ولباب الآداب، والعصا، والبديع.

[٢] ينظر لترجمة طلائع ، ومسيرة حياته مقدّمة ديوانه: ديوان طلائع بن رزّيك: الملك الصالح، ١٩٦٤، تحقيق محمد هادي الأميني، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ص ٥ -٥٠.

[٣] ديوان أسامة ص١٤٤.

ويعدّ أسامة بن منقذ الشيزري من فرسان عصره، وقادته المقاومين والممانعين للعدوان الصليبي بسيفه وفكره وشعره وثقافته العربية. وهو على الرغم من منزلته العالية في قومه ومجتمعه كان ينضوي تحت راية القادة المقاومين للصليبيين، وكان يحرص على الاتصال بأولئك القادة، وتقديم النصح لهم. وفي مقابل ذلك كان طلائع بن رُزّيك يتقلّد أمور مصر، ويحرص على الرغم من اضطراب أحوالها، وكثرة الدسائس فيها، على العمل لدحر الفرنجة، وتحرير فلسطين، ولا سيّما بيت المقدس منهم. إنّ تماثل الوعي وتقارب التوجهات لدى أسامة وابن رُزّيْك قد غيّبا الحدود العنصرية والمذهبية في علاقة كلّ منهما بالآخر، بل كان لذلك أثره في إعلاء كلّ منهما لشأن الآخر، كقول أسامة يمدح طلائع وأهله[١]:

وما الناسُ إلا آلُ رُزِّيكَ؛ إنّهمْ ... هُمُ الذّادةُ الشُّبّانُ، والسَّادَةُ الشُّمْطُ
لهم جبلٌ، لا زَعزعَ الخطْبُ رُكْنَهُ ... به تُؤْمَنُ الأحداثُ، والميتةُ العَبْطُ
أقرّ الوَرَى أنْ ليس كُفئاً لِمُلكهِ ... سِواهُ، فقد زال التنافسُ والغَبْطُ
فلا زالتِ الأقدارُ تَجْرِي بأمرِهِ ... وفي يدهِ حَلُّ الممالكِ والرَّبطُ

فهو يُعلي شأن آل رُزّيْك لأنّهم أقاموا أود الملك في مصر، ووأدوا الفتن. ومن هذا القبيل أيضاً ثناء أسامة على طلائع، وتقديمه على حاتم الطائي؛ لأنّ طلائع يمنع حمى الإسلام، ويبيح حمى أعدائه. يقول أسامة[٢]:

لكَ الفضلُ من دون الورى، والمكارمُ ... فمنْ حاتِمٌ؟ ما نالَ ذا الفخر حاتِمُ!
تَكَفّلْتَ للإسلامِ أنّكَ مانعٌ ... حِمَاهُ، مُبيحٌ ما حَمَى الكُفْرُ هادمُ
فيا ملكاً، قد أحمدَ اللهُ سعيهُ ... ونيّتَهُ، واللهُ بالسِّرِّ عالمُ
تَهَنَّ ثناءً، طَبّقَ الأرضَ نَشْرُهُ ... هو المِسْكُ، لا ما ضُمِّنَتْهُ اللّطائمُ

وفي مقابل ذلك مدح طلائع أسامة، فنسب إليه كمال الفضل، فأضحى كلّهم عيالا عليه[٣]. وكان طلائع كثير الإلحاح على ربط رتبة أسامة العليّة بمحاربته للفرنجة بالفعل والقول[٤]، وهو نعم الصديق، لأنّه

---

[١] ديوان أسامة ص ١٧٥. الشمط: جمع أشمط. والشمط: بياض يخالط سواد الشعر. ومات عبطة: مات شابّاً.
[٢] ديوان أسامة ص٢٢٤و ٢٢٦.
[٣] ديوان طلائع ص١٢٤.
[٤] انظر ديوان أسامة ص ١٦٥، وديوان طلائع ص٦٧.

خليق بأن يُناجَى بالمهمات من الأمور، وأهمّها جهاد العدو المحتلّ. يقول طلائع لأسامة[١]:

أيُّها المُنْقِذِيُّ، أنتَ على البُعْدِ صَديقٌ، لنا، ونِعْمَ الصَّديقُ
ونُناجيكَ بالمُهِمّاتِ، إذ أنت بإلـ ـقائها إليكَ خَليقُ
وأهمُّ الأمورِ أمرُ جهادِ الـ ـكُفْرِ، فاسمعْ، فعندنا التحقيقُ

والنظر في تلك المراسلات بخاصّة، وفي شعر كلّ منهما بعامّة يبرز معالم كثيرة للوعي المقاوم للعدوان على الأمة، آنذاك، ممّا ندعوه اليوم بثقافة المقاومة.

٣ـ معالم ثقافة المقاومة عند أسامة وابن رزيك:

لثقافة المقاومة للاحتلال الصليبي معالم بارزة في شعر أسامة وابن رُزّيْك، وهي ثقافة أسهمت كثيراً في مقاومة الغزو الصليبي، ومن أبرز تلك المعالم ما يلي:

٣ -١ **وجوب الجهاد**: إنّ خطورة العدوان على قداسة المكان، وهويّة أهله توجب أن يولى العمل من أجل تحرير الأرض من الاحتلال أولوية، وأنّ ينشغل قادة الأمة بمقاومة الاعتداء الأجنبي قبل أيّ أمر آخر.يقول أسامة لطلائع على لسان الملك العادل[٢]:

وما في ملوكِ المسلمينَ مُجاهدٌ سِواناَ، فما يُثْنيهُ حَرٌّ، ولا قُرُّ
جَعَلْنَا الجهادَ هَمّنا واشتغالَنا ولم يُلْهِنا عنه السَّماعُ، ولا الخَمْرُ
دماءُ العِدا أشْهَى من الرَّاحِ عندنا ووقعُ المواضي فيهمُ النَّايُ والوَترُ

ويقرّر طلائع أنّ الجهاد بالفعل والقول مكتوب على كلّ مسلم[٣]، وهو أهمّ الأمور في قوله لأسامة[٤]:

وأهمُّ الأمورِ أمْرُ جهادِ الـ ـكُفْرِ، فاسمعْ، فعندنا التحقيقُ

---

[١] ديوان طلائع ص١٠٣. وانظر أيضاً ص٦١.
[٢] ديوان أسامة ص٢٠١.
[٣] ديوان طلائع ص ٦٤. وانظر ديوان أسامة ص ١٦٥.
[٤] ديوان طلائع ص١٠٣، وديوان أسامة ص١٣٦ .

لكنّ مجاهدة العدو قد تكون مضمرة، ثمّ تُعلنُ حين تُستكمل العدّة لها. يقول أسامة يمدح الأمير معين الدين أُنُر (ت٥٤٤هـ) وقد لقي الفرنج، فهزمهم[١]:

لم تَــزَلْ تُــضْمِرُ الجهــادَ مُــسِرًّا ثُــمّ أعلــنْتَ حــين أمكــنَ جَهْــرُ

ومن الطبيعي أنّ هذه الرؤية للصراع مع الصليبيين توجب المشاركة فيه، وتجعل مجاله واسعاً وشاملاً للعناصر المكوّنة للأمة. وقد أنتج ذلك وعياً بتنوّع العناصر المكوّنة للأمة، وتكافئها في المنزلة؛ ففي قصيدة لطلائع نراه يفخر بالعناصر المشاركة في تكوين سراياه المقاتلة للصليبيين، وهي عناصر إفريقية وعربية ومماليك من أصول شتّى، وذلك في قوله[٢]:

وبــرقِيّةٌ شَــامُوا الــسيوفَ، فلــمْ يَعِــشْ لــــبارقها في ســـاحة الـــشَّامِ شـــائمُ
وأفــناءُ جُــندٍ لــو تــوجّه جمعهــمْ لــــرومِيّةٍ، جالــــتْ علــــيها المقاســـمُ
وجمــعُ مماليــكٍ، بأفعالــنا اقْــتَدَوا فكُلُّهُــمُ بــالطَّعنِ والــضَّرْبِ عــالِمُ
وسِــنْبِسُ قــد شــادوا المعالــي بفعلــهم ولــيس لهــمْ إلا العوالــيْ دعــائمُ
وثعلــبةٌ أَضْــحَوا بــنا قــد تَأسَّــدوا فمــا لهــمُ في المــشركين مقــاومُ
وإنّ جُــذَاماً لم يَــزلْ قَــطُّ مــنهمُ قــديماً لحــبلِ الكُفْــرِ بالــشَّامِ جــاذمُ
جــيوشٌ أفــدنَاها اعتــزاماً ونجــدةً فطاعِنُــنَا مــنهم، ومــنَّا العَــزَائمُ
ولَمّــا وَطُــوا أرضَ الــشّامِ تَحالفَــتْ فأضْــحتْ، جمــيعاً، عُــرْبُها والأعــاجِمُ

فهذه السرايا يترقب أهل الشام وصولها ونجدتها، وفيها عناصر مختلفة؛ فطائفة من بَرْقة، وجمع من المماليك، من عناصر شتّى، وجماعات من قبائل عربية (سنبس، وثعلبة، وجذام)، وصلت إلى أرض الشام لمحاربة الفرنجة، متحالفة، وأضحت يداً واحدة: عربها والأعاجم. كذلك نجد عنده طلائع ذكراً لسرية ابن فريج الطائي التي سارت إلى أرض الخليل[٣]، ولأبطال حرب من (كُتامَة) دوخوا بلاد الأعادي بالمسوّمة القِبّ[٤]. إنّهم جيوش مقاتلة، تنوّعت منابتها، وتوحّدت غايتها، وهي مقاومة الصليبيين، فغدا ذلك من عوامل التجانس في المجتمع العربي على نحو لم يكن من قبل.

---

[١] ديوان أسامة ص ١٧٠.

[٢] ديوان أسامة٢٢٢ - ٢٢٣ ، وديوان طلائع ص١٣٢ -١٣٣. وبرقيّة: طائفة من الجيش أصولها من برقة. وأفناء جند: أخلاطهم.

[٣] ينظر ديوان طلائع ص١٢٦.

[٤] ينظر ديوان طلائع ص ٥٩. والمسوّمة: الخيل المعلمة. والقبّ: الضامرة.

٢ـ٣ التعبئة للجهاد وعدم الاستسلام:

تحتاج مقاومة الاحتلال إلى جمع الأموال لإنفاقها في شؤون إعداد القوة لمجابهة العدوّ، ولحشد الأبطال الذين ستُسند إليهم المهمّات الجسام، للإيقاع بالعدى، ولفتح ما استعصى من البلدان. يقول أسامة يمدح الملك الناصر صلاح الدين[١]:

بـكَ قـد أعـزّ اللّـهُ حِـزْبَ جُـنودِه ... وأذَلَّ حِـزْبَ الكُفْـرِ والطُّغْـيانِ
وبَـذَلْتَ أمَـوالَ الخَـزائنِ، بَعْـدَ مـا ... هَـرِمَتْ وراءَ خَـواتمِ الخُـزّانِ
في جَمْـعِ كُـلِّ مُجاهـدٍ ومُجالِـدٍ ... ومُـبارزٍ ومُـنازلِ الأقْـرانِ
مـن كـلِّ مَـنْ يَـرِدُ الحـروبَ بأبـيضٍ ... عَـضْبٍ، ويـصْدُرُ، وهْـوَ أحْمَـرُ قـانِ
فَهُـمُ الـذّخيرةُ للوقائـع بالعِـدى ... ولفـتحِ مـا اسْتَعْـصى مـن الـبُلدانِ

ومن التعبئة للجهاد العملُ المشترك، ووضع الخطط له، كقول طلائع لأسامة[٢]:

قَـصْدُنا أنْ يكـونَ مـنّا ومـنكمْ ... أجَـلٌ، في مـسيرِنا، مـضروبُ
فلديـنا مـن العـساكرِ مـا ضـا ... قَ، بأدنـاهُمُ، الفـضاءُ الـرَّحيبُ
وعليـنا أنْ يـستهلَّ علـى الـشَّا ... مِ، مكـانَ الغـيوثِ مـالٌ صـبيبُ
أو تَـراها مِـثْلَ العـروسِ: ثَـراها ... كلُّـهُ مِـنْ دَمِ العِـدَا مَخْـضُوبُ

فالشاعر يرغب في ضرب موعد يلتقي فيه جيشا مصر والشام، كما يعد بأنْ يقدّم المال الكثير إلى أن يتحقّق النصر، وتصبح أرض الشام مثل العروس، مخضّب ثراها بدماء الأعداء.

لكنّ الحروب بين الفريقين طالت، ودالت، ومن ثمّ كان القادة والناس بحاجة إلى ثقافة تدفع اليأس والضعف والاستسلام للهزيمة، وكان طلائع بن رُزّيك واحداً من أعلام الشعراء المقاومين الذين يبثّون في النفوس روح الجهاد، والثقة بالنصر القادم. يقول طلائع مخاطباً أسامة[٣]:

فقولـوا لـنور الـدينِ، لا فُـلَّ حَـدُّهُ ... ولا حَكَمَـتْ فـيه الليالـي الغواشِـمِ:
تَجَهّـزْ إلى أرضِ العـدوِّ، ولا تَهُـنْ ... وتُظْهِـرْ فُـتوراً، أن مـضتْ مـنكِ حـارمُ
فـنحنُ، علـى مـا قـد عَهِـدْتَ: نَـرُوعُهُمْ ... ونَحْلِـفُ جُهـداً: أنّـنا لا نُـسالِمُ

---

[١] قيطاز ص٢٤٦ -٢٤٧.
[٢] ديوان أسامة ص١٦٦. واستهلّ المطر: اشتدّ انصبابه.
[٣] ديوان طلائع ص ١٤١ -١٤٢.

وغاراتـــنا ليـــستْ تَفَتَّـــرُ عـــنهمُ ولـــيس يَنَجِّـــي القـــومَ مـــنها الهـــزائمُ
وأُســـطولُنا أضـــعافُ مـــا كـــان ســـائراً إلـــيهمْ، فـــلا حِـــصْنٌ لَهُـــمْ، مـــنه عاصِـــمُ

فهو يدعو نور الدين إلى عدم الضعف لسقوط حارم بأيدي الأعداء، ويُخبره بأنّ أهل مصر لن يُسالموا العدوّ، وأنّ غاراتهم على الأعداء برّاً وبحراً مستمرّة. وفي ذلك دعوة إلى الجهاد تجمع ما بين القول والفعل؛ فهو يشجّع على مواصلة الجهاد بالقول من ناحية، ويُخبر عن فعل مقاوم يخفّف الوطء عن الشام، من ناحية ثانية.

٣ -٣ **التنافس في محاربة العدوّ**: كثر تبادل الثناء والمدح في مراسلات أسامة وطلائع الشعرية، غير أن محاربة الصليبيين كانت وحدها مجالا للتنافس بين أسامة وطلائع، أو لنقل بين مصر والشام. ومن ذلك فخر طلائع بسراياه التي بعث بها إلى بلاد الشام، ثمّ قوله بعدُ[١]:

فلـــوَ انَّ نـــورَ الـــدّينِ يَجْـــ عَـــلُ فِعْلَـــنا فـــيهمْ مـــثالا
ويُـــسيّرُ الأجـــنادَ جهـــراً كـــي يُـــنازلهمْ نِـــزالا
لـــرأيتَ للإفْـــرَنْجِ طُـــرّاً في معاقِلِهـــا اعـــتقالا

فأجابه أسامة[٢]:

واشْـــدُدْ يَـــدَيْكَ بِـــوُدِّ نـــو رِ الـــدِّيْنِ، والْـــقَ بـــه الـــرِّجالا
فَهُـــوَ المحامـــي عـــن بـــلا دِ الـــشَّامِ جمعـــاً أن تُـــزالا
ومُبـــيدُ أمـــلاكِ الفِـــرَنْـ ـــجِ، وجمعَهُـــمْ حـــالاً، فحـــالا

والمفاخرة بالانتصارات هي دعوة إلى أن تكون أكثر شمولا، ونكاية في العدو، إذ يمهّد الشاعر بذكرها والمفاخرة بها لتحميس غيره على مجاراته[٣]. وقد يكون التفاخر على نحو غير مباشر، كتهنئة طلائع لأسامة بأنّ جيوش مصر قد فَعلتْ فعالَ الجاهليةْ، إذ أغارت سراياها على الفرنج بكرة وعشيّة، فلقي منها الفرنجة الويل والبلاء[٤]. وهذه التهنئة تشعر بوحدة غاية الفريقين، وهي دعوة غير مباشرة إلى ردّ التهنئة بمثلها، ولا يكون ذلك إلا بتحقيق نصر لجند الشام على الصليبيين، توجبه نصرة الدين أو الدفاع عن السلطان والملك،

---

[١] ديوان طلائع ص١٢٦، وديوان أسامة ص ٢١٥.
[٢] ديوان أسامةص٢١٧ .
[٣] ينظر ديوان أسامة ص١٣٦، وديوان طلائع ص ١٠٣.
[٤] ديوان طلائع ص١٧٣.

أو الأنفة من الاحتلال وانتهاكه للحرمات، وذلك في قول طلائع في خاتمة نصّه، بعد أن دعا أسامة إلى إعلام نور الدين بتلك القضيّة[١]:

فعساهُ ينهضُ نهضةً يَفْنِي بِهَا تلك البقيّةْ
إمّا لِنُصْرَةِ دِيْنِهِ أو مُلْكِهِ أو للحَمِيّةْ

٣ -٤ **إصلاح أحوال الرعية**: في شعر المقاومة للعدوان إعلاء لشأن العدل، وإصلاح أحوال الرعية؛ فقد مدح أسامة صلاح الدين بأنّه أصلح أحوال مصر إذ قال[٢]:

وكانَ بها طغيانُ فرعونَ، لم يزلْ كما كان، لمّا أنْ طغى وتمرّدا
فَبَصَّرْتَهُمْ بعدَ الغواية والعمى وأرشدتهم تحت الضلالِ إلى الهدى

ودعاه في نصّ آخر، بعد مصافّ عسقلان ٥٨٣هـ، إلى إصلاح حال الشام بالعدل، في قوله[٣]:

فسرْ إلى الشامِ فالملائكةُ الـ ـأبرارُ تَلقاكَ ملتقى حُمداَ
فهو فقيرٌ إليكَ، يأملُ أن تصلحَ بالعدلِ، منه ما فسدا

ووصف في نصّ ثالث دولة صلاح الدين أنّها عمّت بنائلها الورى فدعا لها كلّ لسان بالخلد[٤]:

في دولةٍ عَمَّتْ بنائلها الوَرى فدعا لها بالخُلْدِ كلُّ لِسانِ

ومن إصلاح أحوال الرعية نبذ الصراعات الداخلية، والدعوة إلى التوحّد لمواجهة العدوان، ومن ذلك أبيات لطلائع، أرسلها إلى الملك قلج أرسلان السلجوقي (ت٥٠٠هـ) على أثر وحشة حصلت بينه وبين نور الدين محمود بن زنكي، ومنها قوله لقلج أرسلان: أمن بعد ما ذاق العدى طعم حربكم[٥]:

رجعتمْ إلى حُكْمِ التنافُسِ بينَكُمْ وفيكمْ من الشحناءِ نارٌ، تَضَرَّمُ
تَعالوا، لعلَّ اللهَ يَنْصُرُ دينَهُ إذا ما نَصَرْنا الدينَ، نحنُ وأنتمُ
ونَنهضَ نحو الكافرين بِعَزْمَةٍ بأمثالها تُحْوَى البلادُ، وتُقسمُ

---

[١] ديوان طلائع ص ١٧٣.
[٢] قيطاز ص ١٣٦.
[٣] قيطاز ص ١٣٥.
[٤] قيطاز ٢٤٧.
[٥] ديوان طلائع ص١٣٣.

٣ - ٥ **إدانة التعامل مع العدوّ**: ومن ثقافة مقاومة الاحتلال وجوب الدفاع عن الأهل، لا نيل رضا العدو، ولا الأخذ بنصائحه. يقول أسامة لأحد أمراء مصر[١]:

هَبْنَا جَنَيْنَا ذُنُوباً، لا يُكَفِّرُها عُذْرٌ، فماذا جَنَى الأطفالُ والحُرُمُ
ألقيتهُمْ في يَدِ الإفرنجِ مُتَّبِعاً رِضَا عِدًا، يُسْخِطُ الرحمنَ فِعْلُهُمُ
هُمُ الأعادي، وَقاكَ اللهُ شَرَّهُمُ وهُمْ بِزَعْمِهِمُ الأعوانُ والخَدَمُ
إذا نَهَضْتَ إلى مجدٍ تُؤَثِّلُهُ تَقاعدوا، فإذا شَيَّدْتَهُ هَدَمُوا

ويقول الملك الصالح لأسامة يذكر رفضه للهدنة مع الصليبيين[٢]:

وقد كاتبوا بالصلحِ لكن جوابُهمْ بحضرتنا ما يُنْبِتُ الخّطُّ، لا الخَطُّ

فهو يرفض رغبة الفرنج في الصلح، فكان جوابهم بالرماح الخطّية، لا بما تخطّ الأقلام. ثم طلب طلائع أن يقول أسامة لنور الدين:

فَدعْ عنكَ ميلاً للفَرنجِ، وهُدْنَةً بها أبداً يُخطي سواهمْ، ولم يُخْطُوا
تأمّلْ، فكمْ شرطٍ شرطتَ عليهمُ قديماً، وكم غدرٍ، به، نُقضَ الشّرْطِ

٣ - ٦ **مركزيّة القدس**: كان للقدس موقع الصدارة في مقاومة الصليبيين؛ إذ ثمّة وعي عميق بقداسة هذه الأرض، وبضرورة الدفاع عنها، فطلائع بن رُزّيْك يصف ساحة القدس، بأنّها منزل الوحي قبل رسالة الإسلام، لو رآه المسيح - عليه السلام - لم يرض ما يحدث فيه من انتهاك للمقدسات باسمه، يقول طلائع[٣]:

مَنْزِلُ الوحي، قَبْلَ بَعْثِ رسولِ اللْـ ـلهِ، فَهْوَ المحجوجُ والمحجوب
لو رآه المسيحُ لم يرضَ فعلاً زَعَمُوا أنّه له منسوبُ

ومن ثمّ كان أيّ انتصار على الصليبيين يعدُّ مقدّمة لتحرير القدس، لأنّها البؤرة المركزية للصراع؛ فأسامة يقول على لسان الملك العادل، يذكر كسر أحد ملوك الإفرنج[٤]:

---

[١] ديوان أسامة ص١٤٧.
[٢] ديوان أسامة ص ١٧٧.
[٣] ديوان طلائع ص ٦٣، وديوان أسامة ص ١٦٥.
[٤] ديوان أسامة ص٢٠٤.

وما تَنْثَني، عنهُ، أعنّةُ خَيْلِنا ولو طارَ، في أُفق السماءِ، به، نَسْرُ
إلى أنْ يزورَ الجوسَلينَ مساهماً له في دَيَاجٍ، ما لليلَتِها فَجْرُ
ونَرْتَجِعَ القُدْسَ المُطَهَّرَ منهُمُ ويُتْلَى بإذنِ اللهِ في الصَّخْرةِ الذِّكْرُ

ويفخر طلائع بن رُزّيك بأنّ سراياه جاست حول القدس، فقال عن جبالها[١]:

فقد أصبحت أوعارُها وحزونُها سهولا تُوطّا للفوارس والركبِ
ولمّا غَدَتْ لا ماءَ في جنباتها صببنا عليها وابلاً من دمٍ سَكْبِ

ونراه يذكر بعض انتصاراته، ثم يدعو الملك العادل إلى المسير نحو القدس، في قوله[٢]:

فَأبْلِغَنْ قولَنا إلى الملكِ العادلِ، فهو المرجوُّ، المأمولُ
سِرْ إلى القدسِ، واحْتَسِبْ ذاكَ في اللهِ، فبالسَّيْرِ، منكَ، يُشْفَى الغليلُ
وإذا ما أبطأ مسيرُكَ فاللهُ، إذاً، حسبُنا، ونِعْمَ الوكيلُ

فسير الملك العادل إلى القدس لتحريرها يشفي غليل الصدور، وهو عمل صالح، يحتسب عند الله، وإذا ما أبطأ مسيره لنصرة القدس، فحسبنا الله، ونِعْمَ الوكيل.

٤ـ خاتمة:

إنّ مجال أدب الحروب الصليبية واسع جداً، وهو غنيٌّ كثيراً في التعبير عن طبيعة ذلك الصراع، وعن مستوى وعي شعراء الأمة وقادتها لخطورة الغزو الصليبي، ولضرورة التصدّي له، وهو ما رأيناه واضحاً في شعر كلّ من أسامة بن منقذ وطلائع بن رزّيك؛ إذ رأينا فيهما الملامح العامّة لثقافة المقاومة، وهي وجوب الجهاد، والتعبئة له، والتنافس في ميدان محاربة الفرنجة، وإدانة التعامل معهم، إضافة إلى مركزية القدس في ذلك الصراع.

كما أنّ اختيار شاعرين مختلفين منبتاً ومذهباً وموطناً كان موافقاً لغاية هذه القراءة، وهي تعبير الشعر العربي عن وعي الأمة بأهمّية الصراع مع العدوّ الخارجي في توحيدها، وتقوية الأواصر بين عناصرها

---

[١] ديوان طلائع ص٥٨.
[٢] ديوان طلائع ص ١٢٩ -١٣٠.

المختلفة ؛ فالشاعران : أسامة وابن رُزَّيْك كانا متقاربين في السلوك الإنساني ، ولهما ، في الحياة ، هدف رئيس هو محاربة الفرنجة ، وكان ذلك ، في ظنّي ، سبباً رئيساً للصداقة بينهما ، إذ أسهم في تعبير كلّ منهما عن تعظيمه لشأن محاربة الفرنجة ، ولمنزلة المجاهدين المقاومين جميعاً ، وإن تعدّدت مشاربهم ، واختلفت انتماءاتهم.

وإنّ تكرار هذه الظاهرة في تاريخ الأمة العربية يشير إلى خطورتها وأهمّية الإفادة منها ؛ إذ من المهمّ جدّاً لأمتنا أن تتضافر جهود أبنائها لمواجهة عدوان الآخر عليها ، وأن تقاومه ، على نحو يُظهرُ وحدة هويتها التاريخية ، وتوحّد انتماءاتها ، وقوّة الولاء لها.

❑❑